جدلية المماثلة والمقابلة في
« التوابع والزوابع » لابن شهيد

الأستاذ توفيق بكار
ــ كلية الآداب ــ منوبة

I ــ مدخل

«التوابع والزوابع» بلا مراء طريفة من طرائف أدبنا القديم ، فن من النثر مبتكر يجمع بين لذّة القصّ ولذعة النقد .

لا يعرف لها ، إلى اليوم ، أصل مخطوط وإنما هي فيما نقله إلينا صاحب «الذخيرة» من آثار أبي عامر بن شهيد . وكل الطبعات الحديثة عالة فيها على ذلك المرجع الوحيد . ولم يثبت ابن بسام نصّها كاملا في كتابه بل اجتزى منها بما أحبّ أن ينتقي من «فصولها». وقد دلّ على ذلك منذ العنوان : «فصول من رسالة...» وقدّم لكل شاهد منها بعبارة تقوم علامة على الاقتطاع : « فصل »، « قال أبو عامر »، « وله فصل في مثل هذا ». وتقع مواضعها في معاطف النص الكبرى : بعد لقاء ابن شهيد بتابعته زهير وقبل رحيله معه إلى عالم الجان ، وبعد معاجزة أنف الناقة وقبل تدخل زبدة الحقب صاحب الهمذاني ، وبعد نادي الخطباء وقبل مجلس النقاد ، وبعد مجلس النقاد وقبل موقف الحكم بين البغل والحمار . بل نبّه إلى الحذف بصريح العبارة فور إجازة الجاحظ وعبد الحميد للبطل فقال : «وامتد بأبي عامر الكلام في هذا الباب ومدّ فيه أطناب الإطناب والإسهاب . فلذلك وقفت دون الغاية وقطعت قبل النهاية ».

ثم إنه بدأ شواهده حيث بدأها وأوقفها حيث أوقفها وليس ما يحمل على الإعتقاد بأنه قد انطلق من أول « التوابع والزوابع ». وبلغ منها منتهاها ، فبين أجزائها المنقولة. . فجوات وقبلها وبعدها ربّما فِقَر محذوفات . فهي مثلومة في أوساطها مجزومة الأُول والآخر ، بتراء فوراء «عتراء». تلك حقيقتها الراهنة وينبغي لكل دارس أن يعتبرها وإلا كان عمله واهيا من أساسه .

والعجيب أن ثاني محققيها في زمننا الحديث ، بطرس البستاني وهو عالم ثبت، قد أشار إلى نقصها في مقدمته لها ولكنه محا في عرض متنها دلائل القطع حتى بدا نصها المنقول متصلا مسترسلا كأنه لحمة واحدة . ومن شأن هذا أن يوقع القارىء غير المختص في سوء فهم لواقع الحال .

ولا تعلمنا المراجع متى حررها كاتبها ولا في أي ظروف ولأي غرض . فهي أثر لا يوثقه خبر إلا من نفسها فلا مرجع لنا إلّاها في معرفة أسبابها ومقاصدها وما حفّ بها من ملابسات. وما تنبئنا به عن ذاته شيء إن أفاد فلا يكفي. وفي ذلك قد يحيّر مؤرخ الأدب لشدة عنايته بتحقيق النصوص وتدقيق تواريخها وضبط سياقاتها ولكنه لا يحرج ، أو قليلا ، محلّل الأدب ما دام همّه النص قبل ترجمة صاحبه ، إبداع الفنان قبل سيرة الإنسان ، ولكن كيف ونص « التوابع والزوابع » في حاله الراهنة ، مخروم مشروم ؟ لا شك في أن أبا الحسن بن بسام قد أورد ما اختاره من فصولها حسب ترتيبه في الأصل المنقول عنه سابقا بسابق ولاحقا بلاحق فما أخّر ولا قدّم ومنطوق شواهده يؤكد ذلك كما يجلوه التحليل بعد حين .

ومع أنها أثر عجيب يغري البحاث بمغامرة شيقة في مسالك الإبداع فإنها لم تنل من الدارسين كل ما تستحقه من عناية . بدأها البستاني منذ أكثر من أربعين سنة بدراسة غزيرة متينة موثقة ولكنها في أكثرها تاريخية حامت طويلا حول النص في تقلبات العصر وصروف حياة الكاتب ولم تنفذ إلا يسيرا في صميم فنياته . ولم يعد بعده إليها من الدارسين ، في علمنا ، وأخيرا أخيرا ، إلا عبد العزيز شبيل . فقصر غرضه منها على البنية القصصية فحللها تحليلا ذكيا بارعا على مذهب الإنشائية البنيوية. كشف عن لعب التراكيب فيها فهل أصاب لبابها ؟ كان تحليله على قيمته وافيا بأصول المنهج غير واف بثروة النص . والمسألة اختيار . فلكل منهج حدوده وقد ضاقت حدود الإنشائية عن وفرة النص لأدبية النص ، وهي تربو لا محالة على كل تحليل . فشأن النص الأدبي أن يجدد لك الفهم كلما زدته نظرا ، على حد تعبير الجاحظ ، تتعدد فيه القراءات فلا تفنيه ويفنيها ويظل أبدا كالبكر . وهي مأساة النقد ، كما وصفها تودروف ، يطمح إلى الإحاطة بمعنى النص الجامع ولا يدرك منه بالضرورة إلا معنى ممكنا من معانيه التي لا تحصى .فأن تتكاثر الشروح له وتتنوع أمر واجب حتى تنفجر طاقته الكامنة فينطق بشتى معانيه وفي ذلك إخصاب لوجوده بيننا .

من هذه الجهة نقبل بدورنا على « التوابع والزوابع » والعهد بها قديم وما فتئت على مرّ السنين تراودنا بفتنتها وتلح علينا بالدعوة إلى الغوص على مكامن أسرارها وما

كنا ، ربما ، لنلبي اليوم نداءها لولا رغبة إلينا من زميل كريم غامر في بحر الأندلسيات على متن مجلته والتمس منا أن نجدف معه السفينة حتى تشق طريقها، فاقترح علينا موضوع « التوابع والزوابع » . فلم يعد من الأمر بدّ . فكيف لا نستجيب والطلب عزيز وللعلم فرائضه وبالنفس صبوة إلى الأندلس ، « جنتنا الضائعة » ذهبت بنا عنها رياح الدهر وبقيت فيها آثارنا من قلاع وجسور وقصور ومساجد تقوم وقد خلت من أهلها كالأطلال وهي بدائع يقف عليها الراحل منا فيبكي « من ذكرى حبيب ومنزل ». هو « زمان الوصل بالأندلس » قد مضى وصار « حلما في الكرى » تغذيه من تلك الأرض نصوص تعبق بنفح طيبها . كيف لا نستجيب وبالنفس صبوة إلى الأندلس المفقودة تذكيها لوعة على فلسطين الموؤودة ! مأساة ترددها بعد القرون مأساة . موجع هذا التجاوب وفاجع! كذا نحن « تمامنا » من نقصان إلى نقصان ولا نزال نغتر بطيب العيش ! لا أعرف من عقار ينفع في علاج هذا الداء . هي نفثة من أشجان يبوح بها اللسان ويسطر بها القلم سياق الكلام . فسكينة العلم لا تنفي جيشان الروح ولا برودة العقل حرارة الوجدان ؛ ربّ تحليل هادىء تحته كفورة البركان ، ونعود إلى « التوابع والزوابع » ، وما شردنا عنها في الحقيقة ولا استطردنا ، فنبدأ بطالعها ، عنوانها الذي اشتهرت به بيننا .

II ـــ العنوان :

« رسالة التوابع والزوابع »

في هذا العنوان ،لو نعلم ،مشكلة لا بد من إثارتها وتخص صحته . أمّا « التوابع والزوابع » فاسم كلام « الذخيرة » قاطع بنسبته إلى المؤلف : « فصول من رسالة سماها التوابع والزوابع ... » . وأما « الرسالة » فمصطلح لا ندري من واضعه الكاتب أم الناقل . فالنص في حس ناسخه بلا ريب رسالة فهل هو كذلك في وعي منشئه ؟ يقول ابن شهيد في موضع ما من تأليفه هذا : « وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها ... » . فهو إذن عند صاحبه « كتاب » . ازداد الإشكال وما انحل إذ الكتاب اسم يقع على أجناس مختلفة من التآليف، ومن معانيه الرسالة : «كتابي إليك من النوبهار يوم السبت منتصف النهار» كما يقول مجنون السجع الصاحب ابن عباد. ومن معانيه أيضا السفر قد حوى أدبا من غير جنس الرسالة ككتاب كليلة ودمنة وكتاب البخلاء وكتاب الأغاني إلخ ... فأيهما المقصود ؟ المسألة مسألة كيف لا كمّ ، تهمّ نوع المكتوب لا حجمه ، وغايتها التثبت من صحة العنوان للتعرف من الأول ، والأصل مفقود ، على مكان « التوابع والزوابع » بين الأجناس . فلا حل لنا

إلا الرجوع إلى النص الموجود فلعل اسمه منقوش على جسمه . وعلى كل فلئن كان في العنوان من الشبهة ما لا يوضح مسبقا ماهية النص فإن فيه من الجلاء ما يبيّن منذ البدء طبيعة موضوعه : « التوابع والزوابع » . قوية الإيحاء هذه التسمية تثير على الفور في الذهن، بلعب التناص ، عالم الخرافات بخوارقه فنتوقع بشوق سلسلة من الوقائع الغريبة بين الانس والجان تزج بالنص في قصص المغامرات وأدب العجيب . وبهذه الفكرة وذلك الاحساس ندخل النص .

III ــ النــص

« التوابع والزوابع » نصان لا يتشابهان وإن تكاملا في التأليف : حامل ومحمول أو سائق ومسوق وهذا يمّهد لذاك ويعلله . الأول خطابي لا يزال يشدها إلى مراسم الترسل والثاني حكائي ينزع بها نحو القصص . مخضرمة هي ، تمزج فنا بفن . فهل في هذا ما يدل ، من وجهة تاريخ الأدب ، على لحظة من تحول الأجناس ، لحظة تمخض شكل عن شكل ، ولادة نوع جديد من القصص الأدبي من رحم نوع الرسالة التقاليدي ؟ للسؤال خطورته في معرفة صيرورة صيغ الكتابة على مر العصور ، لا سيما وبعد برهة ستظهر في المشرق رسالة الغفران وفي المغرب رسالة حي بن يقظان وكلتاهما على غرار « التوابع والزوابع » : قصة في رسالة . فما أحوجنا إلى دراسات معمقة تؤرخ لنشأة الأشكال وتطورها بالتلاقح والتناسل فنقرأ في آنية النصوص زمانيتها وندركها متحركة بقوة جدلياتها الداخلية والخارجية من فائت إلى قابل ، متجاوبة متجاوزة ، متصلة منفصلة عبر تفاعل الأجناس لا جزرا تعوم متفرقة في بحر الأدب ! وريثما يتهيأ لنا ذلك حسبنا أن ننظر في النص لبحث كيفيات التعاقد بين فنّيه : رساليّته وحكائيته . وبعد فهو المدشن لهذا النوع المزدوج والأول أحق بالدراسة .

أ ـ الخطبــة

هي فاتحة « التوابع والزوابع » ومدخلنا إلى صميم غرضها . تحدد قضية وتعين أطرافها . وهذه القضية في الأصل مساجلة في الأدب مسرحها الحياة تجري عن بعد، بالمراسلة ، بين حاضر يتكلم وغائب يخاطب ، وأمام ثالث حاضر غائب يتتبع ما يقال. ولكن الكتابة محت المسافات بين الأشخاص ونقلت الركح من الواقع إلى النص فجمعتهم عليه وإذا النص أشبه ما يكون بمشهد مسرحي قوامه الحوار ويمثل مجلسا أدبيا انعقد لمناظرة بطلها ابن شهيد الأديب المشهور ويقابله صاحب له من أهل حرفته ينابزه : أبو بكر ولا نعرف حقيقة هويته . هو المقصود ظاهرا بالخطاب وليس هو المعني

باطنا بالكلام فذاك آخر يلوح شبحه من وراء شخصه : القراء أمس كاليوم . هم حضور المجلس يَرَوْن ولا يُرون . ولكل شخص دوره المرسوم حسب قواعد اللعبة : هذا كتب وذاك نقد فهذا على النقد يردّ والثالث جمهور النظارة يتفرجون على « الطرح » ويعدّون النقط . على مشهد ومسمع منهم يبارز البطل خصمه عسى أن يتحمسوا له ويهتفوا فيحكموا بالفوز له على غريمه . يبدأ النص وقد مضى (في واقع الحياة أو محذوف النص) ، من المقابلة شوطها الأول بالتعادل قولا بقول ، كتابة بنقد . وها قد آن أوان الردّ على الخصم لإفحامه ويرد على نفس واحد كأنه « طرادة » (أو اطّرادة). يبادر البطل ناقده (وقارئه) بمفاجأة فيتلقى منه نقده ... بالإعجاب مهللا ويزيد فيبالغ في الثناء على صدق ظنّه وسلامة حسّه : «لله أبا بكر ظن رميته ... وحدس أملته ...» كأنما نقده مدح لا قدح . إنما هي رياضة من رياضات الجدل : يتسلم الخصم من خصمه حجته ويقلبها عليه فيصرعه بسلاحه . فالحرب حيلة وقد خاتله الرجل بالقول فيجيب على المخاتلة بأختل منها . يذكّره بقوله : « فقلت ... أما إن به شيطانا يهديه، وشيصبانا يأتيه ! وأقسم أن له تابعة تنجده ، وزابعة تؤيده ، ليس هذا في قدرة الإنس، ولا هذا النفس لهذا النفس ... » . دس له السم في الدسم وأدركها منه ابن شهيد بفطنته ، ومعايشة السياق ، ولا يدركها القارىء إلا بعد دقائق من تلاوة النص حين يسمع الجاحظ وعبد الحميد يسألان : « ... فمن أشدهم عليك ؟ » والبطل يجيب : « أمّا أبو محمد فقد انتضى لسانه ... » . وأمّا أبو بكر فأقصر واقتصر على قوله : « له تابعة تؤيده ... » هو إذن من الخصم ذمّ بما يشبه المدح وإذا ابن شهيد يأخذه بظاهر إطرائه ، وباطنه هجاء ، فيعكس القول مدحا بما يشبه الذمّ . ولكن التعريض أصابه لا محالة في مكان حساس كان قد أوهاه كثرة ما أتهم به من أنه حاكية لغيره يجيد ترديد الأصوات ولا يحسن إبداعها . قال عنه صاحب المتنبي : « بلغني أنه يتناول » بل ويذكر هو في شعره ما يقوله فيه أعداؤه :

« فقال فريق ليس ذا الشعر شعره »

لا بد من إخراس الألسن بالحجة المبكتة : « أما وقد قلتها ... » فينذر الخصم، وكأنه يبشره ، بالعجاب بعد العجب . وبهذا الوعد له وهو وعيد وبهذه الاثارة للقارىء وفيها تشويق ينقطع الخطاب ويستمر الحجاج بوسيلة أخرى . فبيّنته ما سيقص . هي إذن حكاية برهان تؤيد الفكرة في معرض الاستدلال كشأن الأمثال في كتاب كليلة ودمنة . وفيما بين الخطاب والحكاية نخرج من الواقع إلى الخيال ومن الحقيقة إلى التمثيل . والخصم هو الذي أوحى إليه بهذا الانتقال ولكن « التوابع والزوابع » كانت

عنده فكرة فصارت قصة وكانت نكتة بلاغية فصارت فصولا مروية . خرجت شخوصها من غيب الوهم ، فحضرت على ركح المشاهدة فاستحال المعنى صورا مرئية . ونحمد لأبي بكر خاطرته فلولاها لما كانت « التوابع والزوابع » .

ب ـ الحكايــة

لها ككل قصة مظهران متماسكان لا ينفصمان . فَهْيَ على وجه « خبر » وعلى وجه « خطاب » : أي أحداث تحدث وأشخاص تفعل في ظروف من مكان وزمان وأسلوب في البلاغة ينتهج لأداء كل ذلك . فالمحور في الخبر واقع مّا يراد تصويره إن على الحقيقة وإن على المجاز ، وفي الخطاب قارىء ما يرام أسره بأفانين الكلام : على وظيفتين يجري القص : مرجعيّة تحيلنا تصريحا أو رمزا على العالم ، وإبلاغية تردنا إلى ما بين الكاتب والقارىء من صيغ التواصل . فيتردد القص بين ثالوث من الضمنائر : هو وأنا وأنت فيصور ليعبر ويعبر ليؤثر .

والقصة هنا قصتان تندرج إحداهما في إطار الأخرى على نحو معروف من التركيب التضميني . وتنبثق الثانية عن الأولى انبثاق الفرع عن الأصل والجزء عن الكل . وهي أطول طولا وعليها المدار .

1 ـ القصة الإطار

خلاصتها اللقاء بين البطل وصاحبه زهير . وتتوزع بين ثلاثة مقاطع : اللقاء ما قبله وما بعده ، وكل هذا يؤدي إليه وكل ذاك يترتب عليه . منطق ثلاثي معهود : الشيء أسبابه ونتائجه .

المقطع الأول :
ما قبل اللقاء

وهو ثلاث جمل قصصية : تخرّج البطل في الأدب ، ثاراته في الحبّ ، عجزه عن الشعر . وترتصف هذه الجمل على خط الزمان اطرادا : تعلم السان حتى « طعن ثغرته». وأحب ثم مل حتى مات من كان يهواه فأخذ يرثيه حتى أرتج عليه. ويشدها إلى ذلك نظام علّي فكري ونفسي وحدثي : فهو شاعر لأنه تفقه في الأدب ، ولأنه شاعر أحب كما يحب الشعراء فلكل واحد منهم تابعة من الجان تلهمه وتابعة من الإنس تلهبه : خولة وميّة وهند وأسماء . وملّ لأن شأن العاطفة إذا تكررت أن تورث الكلال والملال . ولأن من يهواه مات رثاه ولأنه كان يحبه غصّ بالأبيات فانقطع نفس الشعر

أو لأنه ملّه نضب معين الشعر بموات العاطفة . ولا منطق في الحقيقة إلا مشيئة السارد يدبر أمره ويرسم للأحداث مسيرها فتجري لمستقر لها .

الجملة القصصية الأولى :

التخرج في الشعر :

لم يصنع في الجملة الأولى شيئا فإنما هي عناصر مأخوذة من ترجمته مع مبالغات وهو فيه مسرود لا سارد ، مسرود وفق مقتضيات عرف مّا والسارد هو المجتمع رتب للتعليم مراتبه من « كتّاب الهجاء » إلى ... التبريز في اللغة والأدب .

الجملة القصصية الثانية :

الحبّ والموت :

أما الجملة الثانية فالأحداث فيها خيالية اختلقها ربّ الحكاية فضبط الأدوار وقدر الأعمار بحكمة يعلمها هو ويشي بها لا محالة النص للمحلل . كذا النص ساكت ناطق وكاتم فاضح . « وكان لي أوائل صبوتي هوًى اشتد به كلفي » كلاّ ما هَوِيَ ولا اشتدّ به الكلف وإلا فأين التشبيب والغزل !؟ ليس عاطفة حبّه بل ... وظيفة في علاقة بما بعدها من وظائف المقطع وتتسق جميعا في نظام يسير بها سيرا نحو الهدف المرسوم : اللقاء . فما أحب إذ أَحَبّ ولكن إله القصّ أحب له أن يحب حتى يكون بعد الحب موت وبسبب الموت رثاء وبالرثاء عِيّ . وملّ البطل وما أسرع ما ملّ، في زمن الخطاب إن لم يكن في زمن الخبر ، حتى تسرع الأحداث إلى غايتها . وما أسرع ما ذهب الحبيب بعد ذهاب الحبّ ! « واتفق أن مات من كنت أهواه » بغير علّة سوى ... إرادة خالقه الذي خلقه من عدم لحاجة الحكاية . أما « الاتفاق » فلا اتفاق بل هو أجله المحتوم حدده له وكتبه عليه في لوحه المحفوظ . فلماذا يمدد له في العمر وهو مجرد تعلّة إلى غيره. لا بدّ أن يزول حتى تتقدم حركة السرد، لا بدّ أن يفنى حتى يكون الرثاء .

الجملة القصصية الثالثة :

الرثاء والعِيّ

وكان الرثاء وما أبرده رثاء ! « فجزعت » كذب ولا حرقة ولا تفجع وهل من غرابة ! فليس الرثاء تعبيرا عن شعور ، ولم يكن ، بل نقطة مرور في طريق القص .

فإن خلا من لوعة على الراحل الفقيد فلأنه تهيئة للقادم الجديد . هكذا يعجل السرد بتوديع الخبيب الهالك حتى يتمحض لاستقبال الصاحب المنتظر . وبعد بيتين من فاتر الرثاء يصيب الشاعر البهرُ وهو أشد على نفسه فيما يبدو وأهم في القص على كل حال من موت الحبيب لأنه لحظة التوتر المنبئة بقرب اللقاء . ينتهي المقطع والبطل في مأزق من الشعر فكيف خلاصه ؟ ولا يعلّق الموقف إلا بقدر ما يحيّر القارىء ويحرّك فيه فضوله .

المقطع الثاني :

اللقــاء :

يتألف من ست جمل قصصية أولها القدوم وآخرها الذهاب : وهما في منطق الأفعال من الوظائف المتلازمة . فبعد الحضور يكون الغياب « ثم غاب عنّي » ، وكل اجتماع يتبعه افتراق ، حكم العادة . وبين الركنين الثابتين تتعاقب أفعال الحشو : إجازة فتعارف فتصاحب لتواعد ، وما هي إلا تنويع مّا على نسق «اللقاء» كما عدد شوقي ، وأن في الحبّ ، عناصره : نظرة فابتسامة فسلام . . فكلام فموعد فلقاء .

الجملة القصصية الأولى :

القــدوم :

يدشن المقطع الثاني بـ « نظرة » ولا « ابتسامة » : « فإذا أنا بفارس بباب المجلس ». مرقوبة هذه المفاجأة حتى كاد التوقع يذهب بالدهشة . ولكنه حدث خارق . بنوع من المعجزة حضر هذا الفارس كأنه من السماء نزل أو انشقت عنه الأرض . حضر بغتة ولا ندري كيف كما تحضر الكائنات الغريبة . هو فارس مجهول تلفه أسرار الغيب الذي أتى منه « على أدهم كما بَقَل وجهه » : سواد على سواد . ما هذا من لون الملائكة أفيكون من الأبالسة؟ ينشأ اللغز ويتكثف فيزيد الجو غرابة مع شيء من السّوسبنْس يوتر القص لحظة كالموسيقى في الأفلام تسطر بالأنغام الثقيلة المواقف . من هذا الفارس ؟

الجملة القصصية الثانية :

الإجــازة :

كما دخل الفارس البستان بلا استئذان كذلك يبدأ « الكلام » ولا « سلام » : « أعجزا يا فتى الإنس ؟ » هو إذن من الجان . فيختلط الواقع بما فوق الواقع ويتماسّ العالمان

عالم الانسان وعالم الشيطان فندخل في أدب العجيب. ويتحول التعليل من المعقول إلى اللامعقول فيحل السحر محل المنطق ونستسلم كالأطفال للذّة الخراف .

عرفنا من أين قدم الفارس فما شأنه ؟

اعتذر له الشاعر عن عيّه فأمره : « فقل بعده ... » لإجازة الشعر جاء وفي اللحظة المناسبة ، لحظة الحرج . اشتدّي أزمة تنفرجي . وما أشبهه على فرسه ، لولا الرمح، بأبطال « الوسْتِرْن » يقبلون على خيولهم ركضا لإنقاذ الأحباب في أيأس الحالات . لا تختلف أفانين القص اليوم عنها في القديم . ومن قال إن العرب لا تجيد القص ؟ جاء إذن « زورو » عفوا « زهير » ، وهو اسمه بعد حين ، ولا ليحيي المحبوب بعد موته بل ليخلص الشاعر من وحلته . وأوحى إليه بما كان أعياه ... بيت واحد من الشعر . الموقف رهيب والمدد قليل أكلّ التهويل لهذا النزر ؟ ولكن لمَ الإطالة وقد أدى الرثاء دوره وانتهى ؟ وبارد كالسابقيْن هذا البيت لا يعجز عنه شويعر فما الحاجة إلى شيطان الشعر؟ فإن تشابهت الأبيات في الفتور فلأنها صادرة ، لا ننس ، عن شاعر واحد . هو ابن شهيد ساردا ينجد ابن شهيد راثيا فجاء الشعر واحدا . هذا إلى قلة ذوق . فما دخل « الظبية » و« الغزالة » أيرثي هو أم يتغزل ؟ وما باله يتحدث عن «النعيم» و« حال السرور » والمقام مأتم ؟ يلهو ابن شهيد من حيث يوهم أنه يتعذب. فلم نطالبه بالجدّ والحكاية هزل وسخرية ؟

ويطرب لشعره يعاد إليه على رداءته «لله أنت!» فهو معجب بنفسه حتى في الخطإ .

الجملة القصصية الثالثة :

التعــارف :

وأخيرا يميط الفارس عن وجهه « لثام » المجهولية فيكشف عن هويته : « أنا زهير ابن نمير من أشجع الجنّ » . هو أخوه في الشعر ونسيبه من الجنّ . توأم له من « الناس الأخرى » . فأيهما الأصل وأيهما النسخة وأيهما الشخص وأيهما الظلّ ؟ كلاهما كالمرآة تعكس للآخر صورته . بل هما هو ، خيالان في القصة من ذاته الواحدة ، مرآتان ترجّعان إليه صورته . ابن شهيد مفرد في دنياه متعدد في نصّه : سارد وشاعر وتابعة . فكيف لا يعرف بعضه بعضا ؟

الجملة القصصية الرابعة :

التصاحــب :

« قال هوًى فيك ورغبة في اصطفائك » . « فقلت أهلا بك أيها الوجه الوضّاح صادفت قلبا إليك مقلوبا وهوى نحوك مجنونا » تبادلا هوى بهوًى ، هوى أصدق من

الذي مات وأعمق لأنه حب الإنسان ... لذاته . إن ابن شهيد يحب ابن شهيد والعكس صحيح . ولا تنقصه في الأصل فتنة نرجسية بنفسه فكيف إذا اشتدّ عليه مقت الأعداء ؟ قانون التعويض يعمل عمله .

الجملة القصصية الخامسة :

التواعـــد :

لا بدّ قبل الفراق من « موعد » حتى يكون بعدِ اللقاء لقاء فتنمو الحكاية . فمن القصة الإطار ينبغي أن تتولد قصص ومن اللقاء مغامرات .

وأعطى زهير صاحبه أبياتا من الشعر « يتمتم » بها و« يعزّم » متى شاء استحضاره فيحضر على الفور مجاوبا « حبيك لبيك من الشرق يجيك من الغرب يجيك » . وتتداعى النصوص من هنا وهناك « خاتم سليمان » و« مصباح علاء الدين » وبخور « الحاج الغربي » ... فيتناءى الواقع ونوغل في الخراف . وليس أحسن من الشعر مدعاة إلى شيطان الشعر ولكنها أبيات لا شيء فيها من سرّ الطلاسم ولا من سحر الشعر .

الجملة القصصية السادسة :

الذهـــاب :

لم يبق إلا الفراق وهو تمام اللقاء فينصرف الزائر كما قدم بضرب من السحر واثبا بجواده فوق حائط البستان فتثب وراءه القلوب مشيعة ثم تنتظر بلهفة عودته . عسير على الطفل فينا أن يفارق عالم الخراف بعجائبه الشيّقة .

المقطع الثالث :

ما بعد اللقاء :

ونعود إلى الواقع بعودة الخطاب ينفتح به المقطع وينغلق. وليس دوره في الأول كدوره في الآخر. فهو في البدء إشارة إنذار تنبىء بطور جديد في مسار القصة : «وكنتُ أبا بكر...» كعلامات المرور على الطريق تنبّه إلى منعرج آت . وهو في المنتهى أسلوب في التشويق يلعب على الكتمان والبوح فيشد القارىء إلى الحكاية شدا في الوقت الذي تتحول فيه من طور إلى طور. فانقطاع الأحداث خطر يهدد الحكاية. ولا بدّ للخطاب أن يتدخل فيلعب دوره في تدارك الحال. «وجرت قصص لولا أن يطولَ الكتابُ لذكرت أكثرها

ولكنّي أذكر بعضها» فما منع عنّا معرفة «أكثرها» إلا ليزيدنا تعلقا بـ«بعضها» الذي به يعـد.

وبين الخطاب والخطاب قصة ما وقع بعد اللقاء الأول، سلسلة من اللقاءات الأخرى تتكرر متشابهة فيُجْمِلُها « السرد الإعادي » في حكاية واحدة تعطينا منها كلياتها : كلما أُرْتِج على الشاعر « تمتّم » بالأبيات الطلاسم فَتَصَوَّر له صاحبه وبلغ من القول غايته . أما التفاصيل فطويت في غيب القصّ فلا يعلمها القارىء أبدا ولا يعلمها البطل أيضا وتابعته لا ولا حتّى ربّ السّرد لأنها ... لم تحدث قط . كتمها ليوهم بأنها جرت وهل يُكْتَم ما لم يكن ؟ أكتُمُه فإذن هو موجود وإن كان معدوما. للقص أُلُف حيلة وحيلة هذه منتهاها يُصَوّر لك المجهول معلوما والمعدوم موجودا فالراوي « إله عليم » لا يفوته شيء مما يقع وحتى مما لا يقع ويعرف كيف يحملنا على التصديق بالكذب . وأعذب القص أكذبه .

(يتبـع)

الجديد في المكتبة الأندلسية :

1 ـــ الموريسكيون ومحاكم التّفتيش في الأندلس 1492 ـــ 1616 للدّكتور . عبد الله حمّادي صدر عن الدّار التونسيّة للنشر والمؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر سنة 1989 .

2 ـــ مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره للدّكتور محمد بن عبّود (منشورات عكاظ ـــ الرّباط 1989).